

## جدلية العنف والدين

### في الفكر التوراتي

الدكتور عبد الغني عماد(\*)

لا يمكن تحليل الشخصية اليهودية دون تظهير جذر العنف الكامن في هذه الشخصية في صيغتها الإسرائيلية - الصهيونية المعاصرة، ودون الكشف عن أصوله التوراتية والتلمودية والتي تشكل أساساً معرفياً يتحكم بأنماط السلوك للجماعات اليهودية، ويوجه ردود أفعالها في كل المراحل. ويعجب المرء وهو يتابع قراءته المتأنية للفكر اليهودي من خلال تجلياته في الخطاب التوراتي المتداول فيما بينهم؛ وذلك لما يجده من طروحات تلبس رداء القداسة وتدعي أن مصدرها السماء وهي ليست أكثر من أوهام وأحقاد وضغائن يندر وجودها في فكر ومعتقدات أي أمة بغض النظر عن مصدرها وضعياً كان أم غير ذلك.

#### الخطاب التوراتي وإشكالية الشعب المختار:

التوراة المعاصرة والمتداولة بين اليهود هي المخزون الفكري الذي يحتضن شريعتهم وكتابهم المقدس، وهو يعرف أيضاً «بالعهد القديم» لتمييزه عن «العهد الجديد» (الإنجيل)، وهو يتألف من ٣٩ سفرًا، ويقسم إلى ثلاثة أقسام. الأول منه يتألف من خمسة أسفار وهي:

١. سفر التكوين (Genesis)

٢. سفر الخروج (Exodus)

\* استاذ في الجامعة  
اللبنانية معهد العلوم  
الاجتماعية.

٣- سفر اللاويين (Levitiens)

٤- سفر العدد (Numbers)

٥- سفر التثنية (Deuteronomy)

وقد أطلق على هذه الاسفار الخمسة اسم «كتب موسى الخمسة» وسميت باليونانية (Pentateuch) بنتاتيخ؛ أي الكتاب ذا الأسفار الخمس. تم تنسيق العهد القديم على أساس محتوى كل سفر. فالأول «التكوين» يتضمن وصف الخليفة وبدء العالم والشعب المختار بنوع خاص.

والثاني «الخروج» يتحدث عن خروج من سمي ببني إسرائيل<sup>(١)</sup> من مصر والوحي على جبل سيناء.

والثالث سفر «اللاويين» ويحتوي على طقوس الكهنة أبناء لاوي.

والرابع سفر «العدد» يتضمن إحصاءات بالشعب «المختار».

وتنتهي المجموعة بسفر «التثنية» الذي يسمى أحياناً تثنية الاشتراع، والذي يبدو كتكرار وتتمة لشريعة موسى.

وقد تضمن السفران الأخيران وصفاً للفتح الذي تم على يد النبي موسى (ع) في الجانب الشرقي من الأردن وتوزيع الأراضي المستولى عليها.

القسم الثاني يسمى «نبيئيم» أي الأنبياء. ويتناول تاريخ بني اسرائيل منذ دخول «يشوع بن نون» فلسطين حتى هدم الهيكل. ويشمل سفر يشوع الذي يقصّ تفاصيل التوغل في فلسطين وتوزيع الأراضي على الأسباط. ثم سفر القضاة ويشمل عهد القضاة بين موت يشوع وولادة صموئيل وسفره الأول والثاني. وسفر الملوك الأول والثاني، وسفر أخبار الأيام الأول والثاني. وبعدها أربعة عشر سفرًا تتحدث عن الأنبياء المتأخرين وهي (أشعيا - وأرميا - حزقيال - ويوثيل - عاموس - عوبديا - يونان - ناحوم - حبقوق - صفيان - حجّاي - زكريا - ملاخي).

أما القسم الثالث فيسمى «كتوبيم»؛ أي الكتابات ويتألف من اثني عشر سفرًا، وهي: مزامير داوود، وأمثال سليمان، وأيوب، ونشيد الأنشاد، وراعوت، وهوشع، ومراثي أرميا والجامعة، وأستير، ودانيال، وعزرا، ونحميا. وتعتبر الديانة اليهودية المتداولة ديانة كهنوتية، حيث الكهنة هم الواسطة بين اليهود وإلههم «يهوه».

وكانت وظيفة الكهان عندهم وراثية، حيث حصرت في نسل هارون وهم «اللاويون»

على قول التوراة.

من هو مؤلف العهد القديم؟ يردد البعض أن مؤلف كل هذه الاسفار هو «الرب»، بالرغم من أنها كتبت بأقلام بشر. ولكن القارئ لهذه المؤلفات سيلحظ من دون كبير عناء أن العهد القديم مجموعة متنافرة من النصوص، عدل البشر من عناصرها على مدى تسعة قرون، بحيث أضيفت أجزاء فوق أجزاء أخرى كانت موجودة من قبل؛ بحيث أصبح التعرف على مصادرها اليوم عسيراً جداً. وليس هذا الأمر وجهة نظر شخصية، بل هي حقائق أثبتتها متخصصون على درجة عالية من الكفاءة والتجرد<sup>(٢)</sup>.

ونحن لا نريد أن نبحث في التوراة بصورة عامة، بل في الأفكار التوراتية التي تؤصل العنف والعنصرية، والتي تدعي الصهيونية المعاصرة أنها تستلهم ما تفعله منها. ولا جدال في حقيقة التزوير الكبرى للتوراة على يد الكهنة والأنبياء المزعومين، بحيث حشي بأشكال التطرف، والحقد، والكراهية، والعنصرية ما جعلهم في عدااء مع بقية الشعوب. وهو عدااء يتخذ شكل تعاليم ومعتقدات أضفوا عليها طابع القداسة. وللأسف تم تمرير هذا الأمر على النصارى، بحيث يمثل العهد القديم كما يزعمون، بالإضافة إلى العهد الجديد كتاب المسيحية المقدس، بالرغم من التناقض الظاهر في المفاهيم، واحتوائه على كل أشكال التطرف، وصور العنف والقتل.

تكرر «التوراة» العديد من النصوص في أسفارها التي تصف اليهود بأنهم شعب الله المختار ومن عداهم «غوييم»<sup>(٣)</sup> وفكرة الاختيارية هذه تحولت إلى مزاعم عقيدية تستند على الاصطفاء، والاستثناء، والاستعلاء، والعداء، وادعاء القداسة.

فالزعم بالاختيار راسخ في نفوس اليهود ويتشربها الطفل منهم منذ صغره ومنها: «لأنك شعب مقدس للرب الهك، وقد اصطفاك الرب لتكون له شعباً خاصاً على جميع الشعوب التي على وجه الأرض»<sup>(٤)</sup>. وهم كذلك يعتقدون أنهم شعب استثنائي: «أنا يهوه إلهكم الذي ميزكم من الشعوب»<sup>(٥)</sup>.

أما الاستعلاء على بقية الشعوب، فهو فعل عبادة كما في الخطاب التوراتي: «يقف الأجنبي ويدعون غنمكم.. أما أنتم فتدعون كهنة الرب.. تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجدهم تتآمرون»<sup>(٦)</sup>. أما الروح العدوانية، فتتجسد على لسان إلههم يهوه: «فلا تقطعوا عهداً مع سكان هذه الأرض»<sup>(٧)</sup> وأيضاً يبشرهم: «لا يقف إنسان في وجوهكم، فإن الرب إلهكم يلقي ذرركم ورهيبكم على كل الأرض التي تطؤونها كما وعدكم»<sup>(٨)</sup>. هم أيضاً شعب الله المقدس والاعتداء عليه اعتداء على الرب: «أسير بينكم وأكون لكم إلهاً. وانتم تكونون لي شعباً»<sup>(٩)</sup> وفي موضع آخر: «لأنك شعب مقدس للرب إلهك»<sup>(١٠)</sup>.

لقد أدت هذه النصوص إلى نمو الوعي العنصري بفكرة الشعب المختار والإيمان بجنس متفوق وأمة كذلك، كتب لها تاريخ خاص، لا تندمج في أمة أخرى، ولو عاشت بينها أجيالاً. والواقع أن هذه الكتابات تؤسس لأسطورة شعب الله المختار بمضمونها العنصري، حيث يُقدم الرواة التوراتيون على لسان الرب عهداً مقطوعة كما في هذا النص: «وفي ذلك اليوم بت الرب مع إبرام عهداً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»<sup>(١١)</sup>.

ويصدر هذا الوعد كأمر إلهي يجب أن يطاع: «إن موسى عبدي قد مات. والآن قم فاعبر نهر الأردن أنت وجميع هؤلاء الشعب، إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل. كل مكان تطأه أخامص أرجلكم لكم أعطيته كما قلت لموسى»<sup>(١٢)</sup>. وهذا النص يصدر كأمر ليشوع. وهذا الوعد بملكية هذه الأرض هو وعد فوق التاريخ، وأبدي: «لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيتها ولنسلك إلى الأبد». وتستخدم هذه النصوص كما لو أنها صك ملكية شرعي أو سندات «طابو» صادرة عن يهوه صاحب الوحي الإلهي عند اليهود الذي يحصر المهمات الالهية بشعبه فقط.

هذا العهد والوعد ليس محددًا بزمان، إنه إرث تاريخي للأجيال: «يهوه يطرد جميع الشعوب من أمامكم، فترثون شعوباً أكبر وأعظم منكم. كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان، ومن نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم»<sup>(١٣)</sup> هذه تتم بأمر الرب. ومفهوم الحدود، الذي تتهرب إسرائيل المعاصرة من رسمها وتحديدها، وتبقيها مغيبة ومبهما، فتارة: «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم» وتارة أخرى: «من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات». فالتاريخ حسب الرواة التوراتيين يُقدّم كما لو أنه سلسلة من العهود والقصص والأساطير. وقراءة النصوص القديمة تكشف ان كل الشعوب تلقت وعوداً شبيهة من آلهتها، تسمح لها بسكن الأرض، بدءاً من بلاد النهرين إلى مصر مروراً بالحثيين. فعلى مسلة الكرنك في مصر التي أقامها تحوتمس الثالث بين (١٤٧٥-١٤٨٠ ق.م) نجد الإله يصرح: «إني أمنحك بقرار هذه الأرض بالطول والعرض. إني جئت وأعطيت الحق في سحق أراضي الغرب». وفي العقيدة البابلية حول عملية الخلق، نجد الإله «مردوك» يثبّت لكل واحد حصته، ويأمر ببناء بابل ومعبيها. وكان «الحثيين» ينشدون «لأرينا» الآلهة الشمسية: «إنك تسهرين على طمأنينة السموات والأرض وتضعين حدود البلاد». لذلك فالوعد التوراتي ليس غريباً في هذا السياق، باعتباره وعداً بالإقامة قُدّم لجماعات من البدو كانت تخضع لحياة التنقل من مكان إلى آخر، وبعد ذلك اتخذ بعداً

سياسياً، وعسكرياً، وقومياً. ولا يمكن لعقل أن يقبل أن لهذا الوعد مفاعيل قانونية، كما لو أنها ملكية حقيقية بصك شرعي صادر عن دائرة عقارية إلهية، ولا يمكن أن يُسَمَّحَ لأي جماعة اليوم بضم الأراضي استناداً إلى أساطير، وإلا لكان على خارطة العالم اليوم ان يعاد ترسيمها من جديد.

### أدلجة العنف وتقديسه:

وتبلغ الدعوة التوراتية ذروة التطرف والعنف، حين تحضُّ على استباحة بلاد الأمم والشعوب واستحلال دمائهم، وأموالهم، ونسائهم. والنصوص التوراتية حافلة بالشواهد التي تؤكد التربية العدوانية المرتكزة على العنف، والذي يصبح مكوّناً أساسياً في الطقوس والشعائر الدينية والتي يمارس اليهود من خلالها فعل تطرفهم تجاه الشعوب.

وقد جمعت قوانين الحرب في العهد القديم في سفر التثنية وفيها بيان لكيفية الاستيلاء على المدن وأسلوب التعامل مع أهل البلاد<sup>(١٤)</sup>. وهي أصبحت مرجعاً وقانوناً ومصدر إلهام ووحى للقادة الصهاينة. ومنها: «إذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً إلى السلم، فإذا أجابتك وفتحت، يكن جميع الشعب الذي فيها تحت الجزية ويتعبدون لك، وإن لم تسلمك وحاربتك فحاصرتها، وأسلمها الرب الهك إلى يدك، فاضرب كل ذكر بحد السيف، وأما النساء والأطفال وذوات الأربع، وجميع ما في المدينة من غنيمة، فاغتنمها لنفسك وكل غنيمة أعدائك التي أعطاكها الرب إلهك»<sup>(١٥)</sup>. هكذا يسرد التوراة قصص الحرب في مواضع عدة، وجميعها تتعامل مع المدن بمنطق «التحريم» وهو المصطلح التوراتي المَعْرَب والمَلْتَبَس، والذي يعني الإبادة كما يتضح من سياق الأسفار الكثيرة.

### النبي والسيف:

يتميز أنبياء التوراة بالقسوة والعنف. هكذا طبق «يشوع بن نون» عندما دخل أريحا: «وقتلوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر، والغنم بحد السيف»<sup>(١٦)</sup>. وتنقل التوراة المتداولة بينهم عن موسى أنه عندما انتصر على المديانيين. قال له: «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة اقتلوهما. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر، إبقوهن لكم حياتاً».

ويوصي الرب موسى: «فتطردون كل سكان الأرض من أماكن وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم»<sup>(١٧)</sup>.

وضع موسى بنظرهم أسس التقاليد العسكرية الإسرائيلية التي سار الأحفاد عليها

فيما بعد . وبعد موته تولى أحد أتباعه يشوع بن نون، الذي أصبح القائد العسكري لعملية غزو أرض فلسطين الكنعانية . وصار بعد ذلك بطلاً تاريخياً، وقدوة تحتذى بسبب وحشية أسلوبه . ففي سفر يشوع «القدوة» تروي التوراة: «.. ولما فرغ بنو إسرائيل من قتل جميع سكان (العي) وخربوها بحد السيف، وكان جملة من قتل في ذلك اليوم من رجل وامرأة اثني عشر ألفاً جميع سكان (العي) . ولم يردد يشوع يده التي مدها بالحربة حتى قتل جميع سكان (العي) .. وأحرقها وجعلها تل ردم خراباً إلى هذا اليوم»<sup>(١٨)</sup> . وبعد استيلائه على مدينة (العي) تقدم لمحاربة أهل (مقيدة) . وهنا تزعم التوراة أن الرب تدخل بمعجزاته، حيث جعل الشمس لا تغرب حتى ينتهي يشوع من مهمته الدموية الوحشية: وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وخربها بحد السيف وضرب ملكها وكل نفس بها، ولم يبق شارباً<sup>(١٩)</sup> وهكذا فعل مع (لبنة) و (لحنيش) وكذلك مع جازر، وعجلون، وحيرون، ودبير، وكل أرض الجبل، والجنوب، والسهل، والسفوح، وكل ملوكها<sup>(٢٠)</sup> . وكذلك فعل داوود مع أعدائه<sup>(٢١)</sup> .

### الإله القاسي والعنف المقدس:

لقد تجرأ اليهود على الله، وصوروه - جل جلاله - على هيئة بشرية يدخل في عراق ومصارعة مع يعقوب - عليه السلام - الذي ينجح في تثبيته حتى طلوع الفجر، ولا يطلقه حتى يأخذ البركة منه قائلاً: «لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له: ما اسمك؟ . فقال: يعقوب . فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله، والناس، وقدرت ..» فإسرائيل وفق هذا النص تمتلك قوة مقدسة باركها الله، الذي يصورونه كإله لا يعرف الرحمة: «الرب إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة . هو يبيدهم ويذلهم . فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلمك الرب»<sup>(٢٢)</sup> . فإذا كان الله - جل جلاله - قاسياً عنيفاً فعلى عبده أن يكونوا على صورته . وتمثيل هذه العبارة الناضحة بالشر مثلاً نموذجياً عن هذه القسوة الداعية إلى تمجيد القوة: «قومي ودوسي يا بنت صهيون، لأنني أجعل قرنك حديداً، وأظلافك أجعلها نحاساً، فتسحقين شعوباً كثيرة، غنيمتهم للرب و ثروتهم لسيد كل الأرض»<sup>(٢٣)</sup> .

### ذهنية الإبادة:

وهي تتجلى في التربية الاستئصالية تجاه الأغيار وتظهر بوضوح في العديد من النصوص التوراتية مثل: «هو ذا شعب كَلْبُوة يقوم، وكشبل ينهض، لا يربض حتى يأكل الفريسة ويشرب دم الصرعى»<sup>(٢٤)</sup> وفي نص آخر: «أما مدن أولئك الأمم التي يعطيها لك الرب إلهك ميراثاً فلا تستبق منها نسمة»<sup>(٢٥)</sup> .

ولا مهرب من تنفيذ الأمر الالهي فالتحذير من مغبة المخالفة واضح بالنص: «إن لم تطردوا أهل الأرض من وجهك، كان من تبقونه منهم كإبرة في عيونكم وكحربة في جنوبكم، يضايقوكم في الأرض التي أنتم تقيمون بها»<sup>(٢٦)</sup>.

إن عبارات القتل، والافناء، والاستئصال تتكرر في الأسفار التوراتية عند كل حديث عن احتلال لمدينة، وقرية، وبلدة. ويعدد التوراة عدد الملوك الذين قتلهم «يشوع» وأفنى شعوبهم فيقول «جميع الملوك واحد وثلاثون». وليس غريباً أن يعمد الصهاينة إلى التذكير الدائم بهذه الأساطير باعتبارها وقائع تاريخية وبطولات يجب تمثيلها وإعادة إنتاجها.

يتبين أن مكتوبات التوراة هي المخزون الحقيقي للإرهاب والعنف، وفي هذا النص تتبدى تجليات ذهنية الإبادة والعدوان: «بقيت أرض للامتلاك كثيرة جداً. مثل بقاع الفلسطينيين، وكل أرض الكنعانيين، إلى تخوم الأموريين، وأرض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل جاد حتى جبل حرمون، إلى مدخل حماه، كل سكان الجبل من لبنان إلى مياه مسرفوت. كل الصيدونيون، سأطردهم من وجه بني اسرائيل، وكل جبل حرمون وكل باشان - الجولان إلى سلكة»<sup>(٢٧)</sup>.

تتجلى في الخطاب التوراتي ذهنية الاستعلاء، والعنف، والكراهية، والعنصرية في أبشع مظاهرها.

### استكمال الأسطورة وتأسيس العنف في التلمود:

التلمود كلمة عبرية معناها التعاليم. وهو كتاب مقدس يعادل في قيمته الروحية والعملية التوراة، بل هو يفوقها بمراحل في الجوانب التطبيقية. إنه مصدر مكمل ومؤصل للعقائد اليهودية وللشرائع التي يتضمنها التوراة، حيث وضع فيه احبار اليهود خلاصة فكرهم شرحاً وتفسيراً واستنباطاً من الأصل التوراتي.

التلمود أيضاً تأخرت كتابته كما التوراة، وهو استغرق ما يزيد عن السبعة قرون إلى أن تمت كتابته بصيغته المعروفة بين القرن الثاني والخامس بعد الميلاد.

يقسم التلمود إلى «المشنة» وهي النص، و«الجمارا» وهي التفسير أو الشرح. و«المشنة» عبارة عن مجموع تقاليد اليهود المختلفة في شتى نواحي الحياة، وهم يزعمون أن هذه التعاليم شفوية ألقاها موسى على شعبه، حين كان على الجبل، ثم تداولها هارون وأليعازر ويشوع وسلموها للأنبياء، ثم انتقلت عن الأنبياء إلى أعضاء المجمع الأعلى وخلفائهم في القرن الثاني بعد المسيح حينما جملها الحاخام يهوذا ودونها.

أما «الجمارا»، فهي مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي دونت بعد انتهاء المشنة. وهي قائمة على ستة أبواب هي: الفلاحة، والأعياد، والنساء، والنواهي،

والعقوبات، والذبائح، والطهارة وهي تتضمن كافة القواعد الدينية الناظمة للعلاقات والممارسات، مع الصلوات والأدعية المرافقة لهذه الأنشطة. وتجب الإشارة إلى أن هناك تلمودين يجب التمييز بينهما. أولهما يدعى التلمود الفلسطيني، واليهود يسمونه الاورشليمي والذين كتبوه هم حاخامو طبرية. ويعرف الثاني بالتلمود البابلي، وقد انتهى من كتابته بصيغته النهائية في بابل في القرن الخامس للميلاد. ولكل منهما طابعه الخاص. البابلي أكثر تنظيماً وشمولاً ومرتبة أعلى كمرجع للتشريع، فضلاً عن أن اللغة المهيمنة فيه هي الآرامية وليس العبرية.

ركز اليهود على تعاليم التلمود فاتبعوها أكثر ما اتبعوا التوراة، وقد جاءت نصوصه وشروحاته أكثر عدوانية وعنصرية من التوراة، وتركزت فيها الشحنة العدوانية ضد المسيحيين، فضلاً عن العداء لكل «الغوييم» أو غير اليهود. ومن بعض النصوص الفاضحة في عدوانيتها: «الخارج عن دين اليهود حيوان على العموم، نسمه كلباً أو حماراً أو خنزيراً. والنظفة التي هو منها هي نطفة حيوان.. وخلق الله الأجنبي على هيئة الانسان ليكون لاثقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم؛ لأنه لا يناسب الأمير أن يخدمه ليلاً ونهاراً حيوان وهو على صورته الحيوانية. فإن كل ذلك نابذ للذوق والإنسانية كل المنابذة. فإذا مات خادم يهودي أو خادمته وكانا من المسيحيين فلا يلزمك أن تقدم له التعازي بصفة كونه فقد إنساناً، ولكن بصفة كونه فقد حيواناً من الحيوانات المسخرة له»<sup>(٢٨)</sup>. وفي نص آخر يتجسد العنف تجاه الآخر بصفة أمر ديني والهي: «اقتل الصالح من غير الإسرائيليين. ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك، أو يخرج من حفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين..»<sup>(٢٩)</sup> و«حتى أفضل الغوييم يجب قتله...» و«.. يجب إزالتهم من سجل الأحياء لأنه قيل عنهم من يأتهم ضدي، سأزيله من سجل الحياة»<sup>(٣٠)</sup>.

هذه المواقف النابضة بالعنصرية تعكس موقفاً تجاه الأغيار يتسم بإنكار إنسانيتهم والخط من كرامتهم. فالأرواح غير اليهودية شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات النجسة. وقد أنتج حكماء اليهود وحاخاماتهم «الهالاكا» أي المنظومة التشريعية التي تحدد بدقة علاقات اليهود مع الأغيار، وفيها مثلاً أن من يضرب اليهودي «كأنه ضرب الله» ويستحق على فعلته الموت، وأنه لولا اليهود لانعدمت البركة من الأرض ولما أمكن لباقي المخلوقات أن تعيش. وقد التزم اليهود بتعاليم «الهالاكا» منذ القرن التاسع، ولا يزالون حتى يومنا هذا من خلال اليهودية الأرثوذكسية. فقد قامت أجيال متعاقبة من الحاخامين بصيانة نصوصها؛ بحيث أصبحت ذات مرجعية عالية.



وكما يتضح من النصوص السابقة، فإنه حسب التلمود: «من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السراي الرابعة، أما من يقتل يهودياً فكأنه قتل الناس أجمعين. ومن تسبب بخلاص يهودي فكأنه خلص الدنيا بأسرها». إذاً، في التلمود والهالاكا تأكيد وتأصيل لنزعة العنف والتفوق العنصري على بقية الشعوب، باعتبار أنهم الشعب المختار وأن الله اصطفاهم دون سواهم من شعوب الأرض. النصوص التلمودية، دوغمائية، تقوم بعملية تثبيت لمفاهيم وعقائد التوراة، وتقوم بالتالي بتأصيل ذهنية اليهودي ونظرته لسواه من الاغيار، من خلال إسقاط اعتبارهم الإنساني تمهيداً لاستئصالهم وإبادتهم، وهو ما فعله الصهاينة في العديد من المجازر والتي لم تتوقف حتى اليوم.

وقد نشأت الصهيونية مستندة إلى هذا الفيض من الأساطير والميثولوجيا، والتي ملأت برموزها حياة اليهود ورسمت سلوكهم وشكلت شخصيتهم، وجلبت عليهم عداة بقية الشعوب. وكان من نتائج هذه الذهنية التي تقوم على الاستعلاء القبول بحياة العزلة داخل أسوار «الجيتو» بحيث ساهم هذا في تحجر الذهنية، وإعادة إنتاجها. فالعنف في الصهيونية حالة تكوينية، وعنصر تأسيسي في العقل اليهودي التوراتي، إنه ليس حالة مؤقتة واستثنائية، عارضة، إنه ليس ردة فعل على معطيات اقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية طارئة، بل هو حالة عضوية تتغذى من طبيعة الفكر التوراتي والتلمودي، وتتجذر في المجتمع الاستيطاني الصهيوني، وتتجلى في مختلف الممارسات الإسرائيلية<sup>(٣١)</sup>.

### الأركيولوجيا تدحض الايديولوجيا:

إن تحليل بنية هذه الأساطير التوراتية الزائفة يعتبر خطوة معرفية أساسية لتبيان كيفية تحول الميثولوجيا إلى أيديولوجيا، وكيفية تحول الأقصوصة الرمزية والتراث الشعبي الشفوي إلى بناء سياسي، وخطاب استنهاضي قومي وإحلالي، يأتي بمفاهيم من قرون بائدة، ويسقطها على الواقع الراهن، مدعياً أنه يمارس عبادة وفعل أمر مباشر من الله، «ما دام ثمة كتاب الكتب؛ أي التوراة، وما دام ثمة شعب الكتاب المقدس. فيجب أن يكون ثمة بلد الكتاب المقدس» هذا ما قاله يوماً موشي دايان والذي عبر عن الروح التي بموجبها تحددت شخصية يهودي الزمن الحاضر والغابر، فأصبح بذلك كائناً أعلى فوق كل الشعوب.

ولقد اعتبرت الصهيونية دائماً أن توفير المناخ الملائم للعمل في مجال التاريخ والتنقيب

عن الآثار بالغ الأهمية، بل هو ليس أقل من الجهد السياسي والإداري والاقتصادي لإنشاء الوطن القومي اليهودي. بل إن إشارة صك الانتداب ذاته إلى «الرابط التاريخي» Historical Connection بين اليهود «المشتتين في العالم» وأرض «آبائهم» كما سموها، كان أكبر نصر في مطلع القرن العشرين للصهيونية وزعيمها حاييم وايزمن، الذي أصر على أن يتضمن صك الانتداب مثل هذه الإشارة إيماناً منه بأهمية الجانب التاريخي لضمان عودة اليهود إلى أرض «أجدادهم». لذلك كان كثيراً ما يردد «نحن لسنا بقادمين ولكننا عائدون»<sup>(٣٢)</sup> (We are not coming, but returning).

ومما لا شك فيه أن ما قاله المؤرخ البارز «كيت وايتلام» في كتابه الهام (إختلاق إسرائيل) يعبر عن الحقيقة. فالتاريخ الفلسطيني عني فقط بالقرنين الأخيرين وبصراعه مع الحركة الصهيونية. أما التاريخ القديم، فقد بقي حكراً على إسرائيل القديمة التي تضخم دورها التاريخي منذ نشوء الدراسات التوراتية في العصر الحديث. أما الدراسات الإسرائيلية الحديثة، فقد عنيت بتاريخ إسرائيل القديم المكتوب من وجهة نظر غربية واستشراقية بوصفها التعبير القديم عن الدولة الحديثة وشعبها اليهودي. إن نمو الحركة الوطنية الفلسطينية لم يؤد إلى إسترداد الماضي كما حصل في الهند وأفريقيا وأستراليا. المشكلة هنا تكمن في أن مفهوم «التاريخ الفلسطيني» يقتصر على الفترة الحديثة لهدف توضيح القضية الوطنية في مواجهة النفي والتشريد، ما يعني أن التاريخ القديم ترك لإسرائيل والغرب<sup>(٣٣)</sup>.

وفي هذا المجال يلاحظ إدوارد سعيد في خاتمة كتابه «لوم الضحية: البحث العلمي الزائف وقضية فلسطين» أن فلسطين كانت وطناً لحضارة لافتة للنظر لقرون طويلة قبل هجرة القبائل العبرية إليها. وبين أن طبيعة هذه الحضارة وانجازاتها تذكر في جمل قليلة بينما فترة الهجرة اليهودية تركت لإسرائيل دون أي تعليق<sup>(٣٤)</sup>، وهو ما حاول «كيت وايتلام» التصدي له بجدارة من خلال تقديم قراءة تكشف التزييف الذي قامت به الدراسات التوراتية الكلاسيكية، حيث يؤكد في خلاصات بحثه الأكاديمي، أن التاريخ اليهودي القديم هو مجرد جزء من التاريخ الكنعاني، أو الفلسطيني القديم. وينتهي إلى ضرورة حياء هذا التاريخ ودراسته بوصفه موضوعاً قائماً بذاته، لا مجرد إطار للسياق الذي ظهرت فيه مملكة إسرائيل القديمة، التي يشكك الباحث في وجودها أصلاً، ويراها مجرد اختلاق وتزييف قام به باحثون مغرضون تحركهم دوافع سياسية، ومصالح تتعلق بالأوضاع الحاضرة.

من هذا الباب، أطلت الأركيولوجيا الإسرائيلية واليهودية، لتحاول من خلال علم الآثار إثبات الأساطير التوراتية، وقد صرفت أموال سخية وبذلت جهود جبارة في حفريات لم تترك شبراً من أرض فلسطين، إلا ونبشته. فماذا كانت النتيجة؟

إحباط كبير عبر عنه أستاذ جامعي وبروفيسور في علم الآثار من جامعة تل أبيب، شارك في أغلب الحفريات المهمة في حاتور، ومجيدو، وتل عراد، وتل بئر السبع، ونشر حولها كتباً عديدة، هو «زئيف هرتسوغ». كتب يقول: «من الواضح للباحثين اليوم أن شعب إسرائيل لم يُقِم في مصر، ولم يته في الصحراء، ولم يحتل البلاد بحملة عسكرية، ولم يورثها لاثني عشر سبطاً إسرائيلياً. كذلك أصعب من هذا أن نستوعب حقيقة تتبدى للعيان، وهي أن المملكة الموحدة لداوود وسليمان الموصوفة في التوراة كقوة إقليمية عظيمة، كانت في أفضل الأحوال مملكة قبلية صغيرة. وعلاوة على ذلك، من الممكن أن ينتاب القلق كل من سيضطر للعيش مع فكرة أن يهوه، إله إسرائيل، كانت له زوجة، وأن الدين الإسرائيلي الأقدم تبنى الوجدانية فقط في هواش عهد الملوك (شأوول وداوود وسليمان) وليس على جبل سيناء. وإنني كابن للشعب اليهودي، وكتلميذ للمدرسة التوراتية، أدرك عمق الإحباط النابع من الفجوة بين التوقعات وإثبات التوراة كمصدر تاريخي وبين الوقائع المكتشفة على الأراضي. وقد خبرت هذه التجربة «على لحمي» وأنا أفحص وأنتقد، وأصحح أولاً وقبل كل شيء تفسيراتي واستخلاصاتي السابقة، إلى جانب انتقاد وتفسير أعمال نظرائي بشكل مجدد»<sup>(٣٥)</sup>.

وبعد أن يشرح بالتفصيل والوثائق الدافعة بطلان الأساطير التوراتية الوارد عناوينها في النص السابق، وأهمها ما ذكره عن القدس، عاصمة المملكة الموحدة، والتي فشلت الحفريات طيلة السنوات المئة والخمسين الماضية في تبيان وجود أية أطلال لهذه المملكة المزعومة، يخلص إلى القول: «من الواضح أن القدس في أيام داوود وسليمان كانت مدينة صغيرة لكنها في كل الأحوال لم تكن عاصمة الإمبراطورية الموصوفة في أسفار التوراة». كذلك هو يقوِّض أسس نظرية الإيمان الأول بالوجدانية في مملكتي إسرائيل ويهودا. من خلال كشف آثار النقب التي تفصح عن زوج من الآلهة (يهوه وزوجته أشراه) وتبريكات باسم زوج الآلهة. يخلص معبراً عن إحباطه فيقول: «إن التشكيك في مصداقية التوصيفات التوراتية ينظر إليه على أنه تشكيك في حقنا التاريخي في هذه البلاد وكتحطيم لأسطورة الشعب الذي أوجد مملكة إسرائيل السابقة. وهذه الأسس الرمزية

تشكل عنصراً مهماً جداً في تشكل الهوية الإسرائيلية لدرجة أن أي محاولة للتساؤل عن صدقيتها تواجه بالعداء أو التجاهل».

تعرض كاتب هذه المقالة الخطيرة لهجوم شنيع، لكن من الساسة وليس من الباحثين والأكاديميين الذين لانوا بالصمت. في كل الأحوال لم يكن هرتسوغ هو الباحث الوحيد الذي يقف مشدوهاً أمام الحقائق التاريخية الدامغة، فقد سبق لزميله المؤرخ البروفيسور «نداف نئمان» أن نشر قبل عام مقالة بعنوان «أخرجوا التوراة من خزنة الكتب اليهودية» فاتحاً الباب للمراجعة والمساءلة سيبقى الفكر التوراتي المؤصل للعنف والعنصرية يعيد إنتاج نفسه.

## الهوامش

١- يسود الاعتقاد عند البعض أن اليهود هم نسل بني اسرائيل. وهذا اعتقاد خاطئ؛ لأنه ينطلق من فرضية الصفاء العرقي لهؤلاء. علماً أن بني اسرائيل لم يتشكلوا من مجموعة إثنية محددة مختلفة عن محيطها، بل كانوا تجمعات قبائلية تباينت عن محيطها فقط من ناحية الايمان بـ «يهوه» كعظيم الآلهة، ثم فيما بعد كإله الواحد. وهذا ما يفسر عدم اختصاص التوراة بلغة خاصة ببني اسرائيل ميزتهم عن محيطهم البشري. فقد كانوا مثل جيرانهم ناطقين بالكنعانية. ومع أن هذه الحقائق أصبحت ثابتة، يصر البعض على تزويرها وادعاء أن اليهود ينتمون لنفس العرق أي متحدرين من الأسباط. علماً أنه أصبح من الثابت الآن أن أصل غالبية يهود العالم اليوم يعود إلى أصول «خزرية» قوقازية وليسوا من أصل سامي. (لمزيد من التفصيل انظر: عكيفا أون، من هو اليهودي في دولة اليهود، بيروت، دار الحمراء، ٢٠٠٠م).

٢- موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار الأفكار، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٤.

٣- غوييم: كلمة عبرية على صورة الجمع. مفرداها «غوى» استخدمها العبريون بمعنى الحشرات التي تزحف في جموع كبيرة. وقد خصصتها العنصرية اليهودية قديماً للإشارة إلى الناس من غير بني اسرائيل. وقد أصبحت تعني السوق، والأشجار، والسفلة من الناس. وتوسع أحبار اليهود، فأضافوا إليها معنى القذارة المادية، والروحية، والفكرية.

٤- سفر التثنية: ٤/١٢

٥- سفر اللاويين: ٢/٦

٦- سفر أشعيا: ٥/٦١

٧- سفر القضاة: ٢/٢

٨- سفر: ١١/١٥

٩- سفر اللاويين: ٢٦/١٢

١٠- سفر الاشرار: ٤/٢

١١- سفر التكوين: ١٥/١٨

١٢- سفر التكوين: ١٧/٨

١٣- سفر التثنية: ١١/٢٣

١٤- سفر التثنية: ٢٠/١٠، و ٢١/١٤، و ٢٣/١٠، و ٢٣/١٦، و ٢٤/٥

١٥- سفر التثنية: ٢٠/١٠

١٦- سفر يشوع: ٦/٢٠-٢١

١٧- سفر العدد: ٣٣/٢

١٨- سفر يشوع: ٨/٢٤

١٩- سفر يشوع: ١٠/٢٨

٢٠- سفر يشوع: ١٠/٢٩ و ٣/٤٣

٢١- سفر صموئيل الثاني: ١٨/١ و ٢/١٠ و ١٨/١٠ وسفر صموئيل الأول: ٣٠/٧

٢٢- سفر التثنية: ٩/٣

٢٣- سفر ميخا: ٤/١٣

٢٤- سفر العدد: ٢٣/٢٤

- ٢٥- سفر التثنية: ١٠/٢٠
- ٢٦- سفر العدد: ٣٣/٥٥
- ٢٧- سفر يشوع ١٣-١/١٣
- ٢٨- أغسطس روهليخ: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة يوسف نصر الله، مصر، مطبعة المعارف، ط ١٨٩٩، ص ٥٣
- ٢٩- المرجع نفسه: ص ٥٤
- ٣٠- الأب أي بي براناييس: فضح التلمود، تعاليم الحاخاميين السرية دار النفاثس، بيروت، ط ١٩٩١، ص ١٤٧-١٤٨
- ٣١- عبد الغني عماد: ثقافة العنف في سوسولوجيا السياسة الإسرائيلية، بيروت، دار الطليعة، ط ٢٠٠١، ص ٧.
- ٣٢- كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة د. سحر الهندي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٤٩، ط ١٩٩٩، ص ١٤.
- ٣٣- كيث وايتلام: المصدر السابق، ص ٣٣.
- ٣٤- Said.E.W., Blaming the victims, spurious scholarship and the palestinian question, london: verso, 1998.
- ٣٥- البروفيسور زئيف هرتسوغ: «لامرتكزات للتوراة في الواقع» هأرتس في ٢٨/١٠/١٩٩٩